بسم الله الرحمن الرحيم

أثر المسجد على الأفراد والمجتمعات

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

قلب المجتمع النابض، ومحرابه القيمُ الراسخ، منطلق البناء الإيماني والتربوي، في رحابه تلتقي طبقاتُ الناسِ كلُّها؛ غنيُها وفقيرُها، كبيرُها وصغيرُها، عالمُها ومتعلمُها، فلا تفاضل بينهم في هذا المكان إلا بالتقوى، إنها المساجد، بيوت الله وطمأنينة الساجد.

الطفل والمسجد.

فالمساجد ليست جدرانًا تُبنى، ولا سجادًا يُفرش، بل هو مجتمع حاضن، ورياض صالح، وإذا كانت المساجدُ بهذا المقام العظيم، فإن أعظمَ ما تُعنى به، وأجلَّ ما تُنشئه، هو بناءُ الإنسان، وغرسُ الإيمان في النفوس منذ نشأتها الأولى.

ومن هنا يبرز الحديث عن فئةٍ لها أثرُها البالغ في مستقبل الأمة، وعنايةُ الشريعةِ بها ظاهرة؛ إنه الطفل فهو اليوم صغيرٌ يُقاد، وغدًا شابٌّ يُؤثِّر، ومن هنا كان حضور الأطفال إلى المساجد مظهرًا أصيلًا في الحياة الإسلامية؛ فقد كان معهودًا زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والذي تجلّت رحمته في مواقف تجسد هذه القضية؛ فقد بوّب أبو داود في سننه فقال: "بَابُ الْإِمَامِ يَقْطَعُ الْخُطْبَةَ لِلْأَمْرِ يَحْدُثُ" وروى أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطب يومًا، فأقبل الحسن والحسين -رضي الله عنهما- وعليهما قميصان أحمران، يعثران ويقومان، لصِغَرِهما وعدم استقرار مشيهما، فنزل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المنبر، فحملهما، ثم صعد بهما، وقال: "صدق الله: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾التغابن: ١٥، رأيت هذين فلم أصبر"(١)، ثم أكمل خطبته؛ فكان في ذلك مشهدٌ يجمع بين الرحمة والتعليم؛ رحمةٍ بالصغار،

(١) رواه أبو داود والنسائي، وحسنه الذهبي.

وتعليمٍ للأمة أن وجودهم في المساجد ليس طارئًا، بل تُراعى أحوالهم، ويُتدرَّجون في أدبها.

والنظر في هذه المسألة ينبغي أن يكون على ميزانٍ منضبط؛ فقد قرر الإمام مالك ضابطًا دقيقًا: إن كان الطفل لا يعبث، وينكف إذا نُهي، فلا بأس بإحضاره، وإن كان يعبث فلا يُؤتى به. فالعبرة بحاله وانضباطه.

أثر المسجد على المجتمع.

أيها المسلمون، وإذا انتقلنا من أثر المسجد في الأفراد إلى أثره في المجتمع، هنا يتجلى سؤال: ما أثر المسجد في حياتنا؟ إن تعمقت في الجواب فسترى للمسجد صورةً أوسع وأعمق؛ فالمسجد مدرسة العدالة الحقيقية، حيث تقف الصفوف لا تُمَيِّز بين غني وفقير، تتساوى المناكب، وتتحاذى الأقدام، في مشهدٍ عمليٍّ يرسخ معنى الأخوة الإيمانية. هناك يذوب الفارق الاجتماعي، ويعلو ميزان التقوى، ويشعر الجميع أنهم جسدٌ واحد، فهو موطن التعارف، ومجال التآلف، إنه

الجامعة اليومية التي لا تنقطع، والمدرسة المفتوحة التي لا تُغلق، يجتمع فيها الناس على طاعة الله، ويتفرقون منها على معاني الخير.

تطهير المساجد من عكورة القلوب.

وإذا كان المسجد كذلك في رسالته، فلا ينبغي أن يتحول إلى ميدانٍ للمشاحنة أو موضِعٍ للخصومة والذميم من المنافسة؛ فهذه الأخلاق تهدم أثره، وتُفسِد مقصوده، إنما هو موطنُ الصفاء، ومجمعُ القلوب، فمن حق المسجد أن يُصان عن كل ما يُكدِّر صفوه ويُذهب خشوعه؛ ولا يُتخذ ساحةً للضغينة، بل يكون موطنًا للسكينة، ومجالًا للنصح برفقٍ وحكمة.

فإذا حفظنا له حرمته، عاد أثره نورًا في القلوب، ووحدةً في الصف، والله المستعان.

غير أن الانحراف عن هذه الرسالة لا يقتصر على مظاهر المشاحنة والخصومة فحسب، بل قد يبلغ حدًّا أشد خطرًا وأعظم أثرًا؛ وذلك حين تُحرَّف بعض

المساجد عن وظيفتها الأصلية، فيُصرف فيها شيءٌ من العبادة لغير الله، أو تُدخل فيها بدع تُشوِّه صفاء التوحيد وتفسد نقاء العبادة، وإن من أشد شيء على المؤمنين الإحداث في المساجد؛ لأنها محل أمنهم وراحتهم وهروبهم من الدنيا وأذاها، فإذا دخل الإحداث في المساجد فهذا من استحكام الغربة.

قال أبو ادريس الخولاني: "لأن أرى في المسجد نارًا تتأجج أحب إليَّ من أن أرى فيها بدعة ليس لها مغير"[1]؛ لأن النار تفسد البناء، والبدعةَ تفسد الدين، ولأن النار يطفئها العامة والخاصة، والبدعة لا يطفئها إلا العلماء الربانيون، وقليل ما هم.

وإن الناظر في حال كثيرٍ من مساجد الأمة اليوم ليجد صورًا مؤلمة؛ فكم من مسجدٍ شُيِّد على القبور، أو أُلصق بها، حتى صارت القبور في قبلته أو في ساحته، تهراق دمعة التوحيد في عتباتها، حتى اختلطت العبادة بما

---

(١) السنة، للمروزي (١/٣٢).

ليس منها، ووقع الخلل في أصل الدين الذي من أجله شُرعت المساجد. وهذا من أعظم ما يُنافي صفاء التوحيد، ويُذهب مقصود عمارة بيوت الله.

وقد جاءت السنة بالنهي الشديد عن ذلك، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك". فكان هذا نهيًا صريحًا، وتحذيرًا بالغًا، سدًّا لذريعة الشرك، وحفظًا لجناب التوحيد.

ومن صور الإخلال بحرمة المسجد رفع الصوت بالقراءة داخل الصلاة؛ فإن بعض الناس يجهر جهرًا يُشوِّش على المصلين فيه ويقطع خشوعهم لأجله، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فلا يؤذين بعضكم بعضًا، ولا يرفعْ بعضكم على بعض في القراءة".

فالمقصود من الصلاة حضور القلب لا علوّ الصوت، فإذا تُرك هذا التشويش استقرت السكينة وتمّ المقصود من العبادة، وزال الرياء المرتقب.

لكن تأمّلوا أمرًا أعجب من ذلك؛ ليس كل تشويشٍ يُسمع بالأذن، بل قد يكون خفيًّا لا يُرى، ومع ذلك يبلغ أثرُ هذا التشويش الإمامَ في صلاته!

فقد صلّى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصحابه، فالتبس عليه في القراءة، فلما فرغ التفت إليهم وقال: "ما بالُ رجالٍ يحضرون معنا الصلاة بغير طُهور؟! أولئك يلبِسون علينا صلاتنا"(١).

فانظروا كيف كان أثر الخلل الخفي! رجالٌ في الصفوف، لا صوت لهم، ولا حركة تُرى، ومع ذلك أثّر تقصيرُهم في طهارتهم على صلاة الإمام!.

ومن صور الإخلال بحرمة المسجد أيضًا ما يُوضع في قِبلته مما يشغل المصلين ويصرف أبصارهم؛ فقد سُئل الإمام مالك عن الكتابة في قبلة المسجد بالصبغ، كآية الكرسي ونحوها، فقال: "أكره أن يُكتب في قبلة المسجد

---

(١) رواه أحمد وسنده حسن.

شيء من القرآن أو التزويق" لما في ذلك من إشغال المصلّي عن صلاته.

والواقع اليوم يشهد صورًا من ذلك؛ كتعليق اللوحات والمنشورات في قبلة المصلي، فيقع النظر إليها حال الصلاة، فيضعف حضور القلب ويقلّ الخشوع؛ ولهذا مُنع من ذلك من قِبل الجهات المختصة، سدًّا لذريعة التشويش، وتحقيقًا لمقصود السكينة في الصلاة.

أيها المؤمنون، إن قضية المسجد اليوم ليست قضية بناءٍ مادي، بل هي قضية رسالةٍ حضارية، وهويةٍ إيمانية.

وإذا كانت بيوت الله قد شُرعت لتُرفع ويُذكر فيها اسمه، فإن رفعها برفع شأنها في القلوب، وإحياء دورها في النفوس، وتعظيم رسالتها في الواقع.

إن الأمل معقود على عودة الأمة إلى مساجدها عودةً حقيقية؛ عودةُ عبادةٍ لا عادة، وعمارةٍ لا زيارة، وتربيةٍ لا مجرد حضور. فإذا عاد المسجد إلى مكانته، عاد للأمة توازنها، واستعادت قوتها، واستقام مسارها.

نسأل الله أن يديم للمساجد مكانتها، وأن يعمرها بعباده الصالحين، وأن يجعلنا من أهلها الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

كُتِبَ في ٧ / ١١ / ١٤٤٧ هـ

أ.د عاصم بن عبدالله بن محمد آل حمد